ـ ١ ـ

سحبت فريزة اللحاف عن جسدها الممدود في السرير بحركة نزقة ، فانحسر ثوب النوم عن ساقيها ، ولم تكلف نفسها عناء رد الثوب عليهما، فوجد هواء الليل عندهما فرصة سانحة . لم يكن غير صوت تساقط مياه نافورة البحيرة الصغيرة التي في صحن الدار يداعب الهدوء الذي كان يلف الغرف الاربع وقد توزع فيها افراد الاسرة بعد ان امسوا في ظل المملكة التي يمتد نفوذ سلطانها طيلة ساعات الليل على نصف الدنيا ..

ومرت لحظات ، انتفضت فريزة بعدها في مكانها قليلا عندما دقت ساعة الدار التي في غرفة والديها دقة واحدة فادركت انها تعلن الواحدة بعد منتصف الليل ..

كانت تحاول عبثا ان تنام .. هذه ساعة كاملة تمر عليها وهي تتقلب في فراشها دون جدوى ، فخيوط خواطر مضنية عن هذا المساء تتسلق جبهتيها كالعقارب ، ثم تتلوى في رأسها متشابكة وتعود لترتسم في ظلام الغرفة كالاشباح :

ـ . « ليلعن والد هذا الوالد .. ملاية ، ومنديل ، لاروحة ، لا طلعة. كل يوم سجن بالبيت .. كنس ، جلي ، غسيل .. ليلعن هذا العمر »!.

ـ ٢ ـ

كانت الساعة الثامنة والنصف مساء عندما خرجت مع الجارة مكية وابنتها قمر الى دار السينما لحضور حفلة الساعة التاسعة .. لم يكن والدها قد عاد الى البيت ، فرحت امها كثيرا ، وساعدتها قمر في الرجاء حتى رضخت الام ، ولكن اباها كان قاسيا جدا عندما ظل ساهرا حتى رجوعها من السينما حيث استقبلها عند الباب بصفعة قوية وصياح كثير : قليلة الادب ، مقصوفة الرقبة ، ليس عندنا بنات تسهر في السينما حتى منتصف الليل .. فهمت ؟..

ـ ٣ ـ

احست فريزة بلفحة من البرد تمسح جسدها الذي كشفته لهواء الليل ، فعادت الى سحب اللحاف فوقها ، ومرت لحظات احست بعدها بالدفء يتمشى في انحاء جسدها ، وبحبل افكارها يصل ما قطعته هذه اللفحة المفاجئة من برد الليل .. هي مقتنعة تماما بان اباها اصل علتها ، فهو رجعي ، ظالم ، ووجهه لا يضحك للرغيف السخن .. هكذا تقول عنه الجارة مكية ،وفريزة توافقها على هذا القول ..

لن تنسى ابدا الصفعة التي احست معها بالشرر يقدح في عينيها ، لماذا ؟. لانها ذهبت الى السينما !. اكانت وحدها التي ذهبت الى السينما ، الم تكن معها الجارة مكية وابنتها قمر ، والف واحدة من الصبايا اللواتي كشفن عن النحور والصدور .. كلهن جلسن على مقاعد السينما يشهدن العرض آمنات سعيدات ، الا هي ، كان شبح والدها بقامته الطويلة ورقبته المعروقة ونظراته الصارمة ، ترتسم امامها على الشاشة فتبدو خلفها مشاهد الفيلم مهزوزة باهتة ..

انها لم تفعل شيئا يستحق الصفع ، هي مقتنعة بهذا .. لم تتصرف مثل اكثر السيدات اللواتي راتهن في السينما ، لم تتأبط ذراع رجل ، ولم تقهقه بصوت عال ، ولم توزع الابتسامات والتحيات هنا وهناك لقد ذهبت الى السينما بشرف وعادت منها بشرف ، لم ير احد زنودها ولا وجهها ، الملاية الزم تغطي كل شيء ، وفوق كل هذا لم تذهب وحدها.

ـ « لماذا يضربني اذن ؟ . لماذا ؟ . » ..

وخبطت فريزة المخدة بقبضة يدها ، وزفرت زفرة طويلة ، وفتحت عينيها اكثر كانها تريد ان تستشف شيئا خلال ظلام الغرفة ، الحيرة مستبدة بها وهي معها منداحة في دوامة عنيفة تتضارب فيها الخواطر يائسة متعبة .. لا تدري ماذا تفعل ولا كيف تتصرف .. فتاة في حدود العشرين من عمرها لا تستطيعان تتمتع بشيء من الحرية ولا ان تقنع والدها برأي ؟.

ـ « هذه قمر ، اصغر مني ، لماذا اعطاها اهلها الحرية ، تروح وتجيء كما تريد .. لاملاية.. لا منديل .. وابوها مثل السكر ، يشيلها : يا عيني ، ويحطها : ياعيني »

وعاد الحقد يغلي في صدر فريزة ، واحست به يتضخم ويتضخم ويصبح افعى كبيرة سوداء تلتف بقسوة على والدها ، لماذا لا يعاملها كما تعامل قمر ، حتى المدرسة حرمها منها ، كم تتمنى لو سمح لها بارتداء تنورة سوداء ، وفوقها بلوزة حمراء زاهية ..

ـ « وشعري مفرود مثل القصب ، وحذائي بكعب عال ، وحقيبة سوداء .. والله كنت سافلفل كل شبان الحارة .. هل قمر احلى مني ؟. ليست حلوة الا بثيابها . لتلبس مثلي ملاية ولتضع منديلا .. تسوى بصلة » .

وعادت الحسرة تأكل قلبها ، وحقدها على والدها لا يزال قاسيا ، عنيفا ... اليوم ادركت ان ايامها تقتل في هذا البيت بلا عدالة ، فجرت صفعة والدها لها كل ما كانت تختزن في صدرها من احتجاج مكبوت ، ولكن .. هل تستطيع ان تعلن هذا الاحتجاج خارج غرفة نومها، بل حتى خارج سريرها .. انها تهاب اباها ، تهاب نظراته القاسية التي يحدجها بها لسبب ولغير ما سبب .. وهي ترثي لحال امها وتعجب

كيف استطاعت ان تعايشه كل هذه السنين الطويلة ..

وعضت على شفتها السفلى عندما قفز الى ساح ذهنها سؤال جديد ، ترى هل تكرهه ، من اعماقها ؟ وهل يمكن ان تكره ابنة والدها بمثل هذا العنف ؟.

غص الجواب في اعماقها ، وبلعت ريقها بصعوبة ، وارتفع رأسها بحركة نزقة الى اعلى قليلا ، ثم ما لبث ان ارتمى على الوسادة ، وعادت تصارح نفسها ..

هي ـ في الواقع ـ لا تكرهه ، لا تريد ان تتصور نفسها اقسى منه، ولكنها لا تطيق هذه المعاملة التي يعاملها بها .. غير انها تخاف منه على كل شيء .. حتى على مستقبلها .. الم يوصد الباب منذ ايام بوجه (الخطابة) الذين جاءوا يريدونها عروسا لابنهم ؟. لقد قال لامها يومذاك مبررا تصرفه : لا تزال صغيرة ..

ـ « هل انا صغيرة .. العمى . عشرون عاما . لماذا لم يقل الحقيقة؟. لماذا لم يقل ان المهر لم يعجبه ؟.

ـ ٤ ـ

قفزت الى ذهنها صورته عندما جلس في الصباح قرب البحرة يشرب القهوة مع الشيخ ابي درويش الذي قالت عنه الجارة مكية انه يتوسط بين العائلات المستورة في مواضيع الزواج .. لقد ظنت فريزة انه جاء (بنية خير) لذلك جلست في المشرفة المطلة على البحرة تسترق السمع الى حديثه .. تحدث عن المدنية الحديثة ، قال ان الناس خرجوا عن الطريق السوي وراحوا يقلدون الاجانب في الطعام واللباس والكلام ، حتى ان الانسان اصبح يتعب كثيرا قبل ان يعثر على عائلة مستورة تحافظ على التقاليد وتسعى على الصراط المستقيم ..

ثم حكى كلاما كثيرا ، لم يترك سيرة ـ عدا سيرة الزواج ـ الا وجذب احد اطرافها ، حتى انتهى الى اصول التربية البيتية فاستنتج ان رب الاسرة ـ يجب ان يعامل افرادها كما كان معاوية يعامل اهل الشام ، وروى لوالدها قصة خيط معاوية الذي كاد يشده عندما يرخيه اهل الشام ، ويرخيه اذا هم شدوه ..

وقد عقب والدها على حديث ابي درويش بقوله : والله ، انا لم اسمع بقصة خيط معاوية قبل اليوم ولكني استطيع ان اؤكد لك انني اتبع هذه السياسة نفسها في بيتي ، وهذا مما يجعلني مرتاحا ومطمئنا الى مستقبل اولادي ..

ورد ابو درويش بعد ذلك ـ وهو يهم بالانصراف ـ بكلمات مديح تقليدية راح يكيلها بلا حساب ..

ـ « لماذا لم يرو الحقيقة لابي درويش ؟. متى كان يرخي لنا الخيط اذا شددناه .. العمى .. كل حياته وهو يشد » .

ـ ٥ ـ

لم تقتنع فريزة من محاكمتها الداخلية بان تصرفات والدها تستحق منها شيئا من الرضى او الاحترام ، كان فيها كلها برأيها شيء كثير من الاجحاف بحقها .. ماذا تتذكر لتتذكر ؟. الحافها بالسؤال اكثر من اسبوعين من اجل شراء (حلق موضة) بليرتين ؟. ام تهديد والدها لها بالقتل ان هي كلمت ابن خالتها محمود الذي تودد اليها زمنا فشعرت بانعطاف عميق نحوه سرعان ما خنقه ذلك التهديد ؟. ام محاولته ضرب امها لانها سالته رايه في قص شيء من شعرها الذي اصبح طويلا جدا ؟. ام منعها من مغادرة البيت ؟. ام اجبارها على ارتداء الملاية ووضع المنديل السميك ؟ ام حرمانها من المدرسة ؟. ام وقوفه في وجه طالبي يدها ، ام صفعه خدها هذا المساء صفعة قدحت نارا في عينيها ؟.

ـ « العمى .. الف واحدة وواحدة .. ومع هذا يتفلسف ابي درويش ويحاول ان يظهر بمظهر معاوية .. يا الله .. ماذا افعل ؟.. »

هي تعلم انها لا تستطيع ان تفعل شيئا سوى الاحتجاج بينها وبين نفسها .. قد تستطيع ان تنقل احتجاجها لامها اثناء غياب والدها في عمله ، ولكن الاثنتين لا تستطيعان عرضه ولا باليق الطرق امام رب الاسرة .. ان امها مسكينة ، لاحول لها ولا رأي ، تنفذ ما يأمرها به دون تذمر ظاهر ، انها الان في نظرها اكثر من بطلة ، والا كيف استطاعت ان تقاسي من جوره اكثر من عشرين عاما ؟. لقد حاولت مرارا ان تقنع امها بان الملاية (دقة قديمة) .. وان عليها ان تقنع زوجها ليسمح لها ـ لفريزة ـ بارتداء التايور والتنورة والبلوزة ، مع المنديل طبعا ، ولكن محاولتها ظلت معلقة في الهواء ، ولم تلم امها لانها لا تريد ان تعقد الامور اكثر مما هي عليها ، ولذلك رضخت لواقعها صاغرة لاعنة .

ـ ٦ ـ

من جديد حاولت فريزة ان تنام ، لقد اتعبها الارق ، وهذه الافكار السود التي تدور في راسها باردة ، صريحة ، وهي تنداح معها منذ ساعة في حلقة لا تنتهي منها الا لتبدأ من جديد ..

ـ « لتلعن السينما وخيرها .. كل هذه المزعجات من اجل روحة الى السينما ، ويا ليتني فهمت الفيلم كما فهمه كل الناس » ..

وانقلبت على خاصرتها اليسرى ، وسحبت اللحاف فوق رأسها ، وشيئا فشيئا بدات اجفانها تثقل ، وامتدت يدها اليمين الى ساقها تشد طرف السروال الطويل الى اعلى قبل ان تسوي ثوب النوم ، وكانها ـ عندما امسكت بطرف السروال ـ قد لامست افعى .. الان فقط ادركت ان استبداد والدها قد خرج عن كل حد ، حتى السراويل ، سراويلها وسراويل امها ، يصر على ان تكون من النوع الطويل المشفولة اطرافه بالتنتنة ، والذي يكاد ان يصل الى الركبة .. لقد اقام الدنيا مرة على رأس امها لانها اشترت سروالين ـ لها ولابنتها ـ من الجورسيه القصير.

ـ « يخرب بيته .. حتى لباس النساء يتدخل في امرها ؟! » ..

ـ ٧ ـ

وطار النعاس من عيني فريزة من جديد .. فارقت ساعة اخرى .. كانت لا تريد ان تنام قبل ان تنفس كربها ، تريد ان تنتقم لظلامتها ، ان تتحدى اباها ..

وقد استطاعت ان تنام اخيرا عندما مدت يديها الاثنتين وسحبت سروالها الطويل عن جسدها ، وقذفت به خارج السرير ..

دمشق

جان الكسان

من (جمعية الادباء العرب)